

أضواء على

حملة شريف مكتة

على القصيم

سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م

أ . خالد حيود السعدون

لاحظت أن المراجع التي تحدثت عن هذه الواقعة مرت - كدأبها في أغلب الأحيان - بالحدث مروراً سريعاً ، فها فصلته ، ولا بينت أهدافه ومراميهِ ، وما انتهى إليه ، فأعطينا صورة مشوشة تثير من الأسئلة أكثر مما تعطي من الاجابات - لذا رأيت أن أقف أمام تلك الواقعة وقفة نزيل ما علق بها من غموض ، على ضوء التفصيلات التي سجلتها الوثائق البريطانية المعاصرة .

وبحسن بنا قبل أن نلج في صميم الموضوع أن نذكر الفارسي الكريم بالأحوال العامة التي كانت سائدة في منطقة الفصيم حينئذ . فنقول : إن الفصيم تحول بعد استرداد الأمير عبد العزيز آل سعود للرياض سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م إلى ساحة صراع بين الرياض وحائل تدخلت فيه الدولة العثمانية لصالح الأخيرة . فما نفعنا ؛ ولكن فضحت عجزها . حين مالت كفة الصراع بدءاً في سنة ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م لصالح الرياض . فأصبحت هي المسيطرة . وعاد أكثر أهل الفصيم إلى ولائهم لآل سعود .

ولقد كان الوضع كما وصفنا حين شخص الشريف حسين بن علي ينظره نحو تلك المنطقة . وكان أول ما فعله أن أرسل في حوالى شهر جمادى الثانية ١٣٢٨ هـ / يونيو ١٩١٠ م للأمير عبد العزيز آل سعود بطالبه . بتقديم رسم سنوي مالي عن منطقة الفصيم مقداره سعمائة جنيه استرليني على أن يتم دفعه عن كل السنوات الثلاثين الماضية التي انتفعل فيها . وأرسل الشريف من ناحية أخرى إلى أهل الفصيم بطلب منهم فك ولائهم للرياض وتحويله اليه . وقد لاحظ الفصل البريطاني في جده الذى أورد كل هذه المعلومات أن تلك المطالبات ، ما هي الا مقدمة لتحرك حربي أكدته له المعلومات التي وصلت من مكة المكرمة^(١) .

ولا ندري إن كان الشريف لم يلق رداً من الأمير عبد العزيز . أو أنه تلقى ذلك الرد دون أن يصل لنا ما يشير اليه . فكل الذى نعرفه ان حملة بقودها الشريف تحركت من مكة المكرمة . وأنها كانت شمال الحزمة في العشرين من شعبان سنة ١٣٢٨ هـ^(٢) . حيث كتب الشريف من هناك رسالة لشيخ الكويت مبارك الصباح هذا نصها :

● بسم الله الرحمن الرحيم ●

« وبعد اهداء اجل التحايا والتسليات [كذا] تم الداعي لتحرير اء [تجديد العهد بودادكم والاستغفار عن صحتكم تم وانا قادمين الى نجد ونحرر هذا من المعلوم^(٣) والسبب لذلك اولاً السياحة والاختيار في القطعة المذكورة والنظر في اسباب التناؤة ونزاياد الاختلاف الواقع به لعنا بعناية الله تعالى وبيركة أديعتكم بوصول لازالة ما في ذلك من سفك الدماء وخراب البلاد وذهاب مصالح العباد وجعل الله اعمالنا واباكم خالصة لوجهه تم والفصد تشدوا لنا ما به رز واهين حمل دفين وعشرة احمال قهوة وخمسة احمال سكر على شرط ان يكون وصولها الى شفا بوجه السرعة^(٤) . وواصلكم طية تحويل بجدد من اصل التمن نفيدونا بوصوله مع بيان قبضة المطالبات المذكورة وأكديتها^(٥) . والاولاد علي وفصل وزيد يسلمون عليكم السلام الكبر وبطيه كتاب لصاحب مسكت الرعاء تنكرموا بارساله في أول برید^(٦) . والله بحفظك^(٧) » .

ولابد لنا هنا في أن نخرج قليلا على سياق الموضوع لنقول : إن نوع التبريد مساعداً النسخ مبارك له في حملته ضد الأمير عبد العزيز يدل على عدم معرفته بواقع الأمور في شرق الجزيرة العربية : إذ لو كانت له معرفة كافية بذلك لأدرك أن من السحيل على مبارك أن يقدم بصورة علنية على التخل عن حليفه الرئيسى في المنطقة . وذلك هو ما حدث بالفعل : إذ كتب الوكيل السياسى البريطانى في الكويت قائلاً : إن الشيخ مبارك لم يرد على رسالة التبريد . وليست لديه التبه لإمداده بالمؤن^(٨) .

ونعود إلى سياق الموضوع فنقول : إن قوة التبريد التى ضمت مائتى خيال وكانت تتكون من خمسين خيرة^(٩) . وصلت إلى النخوم الجنوبية للقصيم . فأرسل التبريد من هناك إنذاراً للأمير عبد العزيز قال فيه : إن منطقة القصيم نائية للإشراف منذ أيام جدة الأكبر . لذا فإن عليه أن يسمح لابن بسام ولحمد المهنا بالإقامة فيها . وإلا فإنه سوف يلجأ لاستخدام القوة^(١٠) . ولا يتضح لنا مما اغتبتناه إن كان المقصود بإقامة هذين الرجلين . هو مجرد الإقامة العادية . أو الإقامة بصفتها عاملين للتبريد . لإدارة منطقة القصيم . وهو الأرجح . كما أن الوثيقة البريطانىة التى أوردت الخبر لا تعرفنا على شخصية ابن بسام المذكور . إذ أن آل بسام كثيرون كما هو معروف . ولكن ربما كان المقصود هو سليمان البسام . الذى تصفه وثيقة بريطانية أخرى بأنه التاجر البارز المقيم في مكة . والتصير القوى لابن رشيد والمعارض لابن سعود^(١١) .

جاء إنذار التبريد للأمير عبد العزيز أثناء انشغاله بمعالجة فتنة نشبت في الجنوب . ففرض عليه الموقف العسكرى عدم تشتيت جهده بين جبهتين . فمال إلى ملاينة التبريد فأنفذ له ناصر بن فرحان برسالة تذكره بفشل محاولة أخذ القصيم عنوة التى قامت بها قبل بضع سنين الدولة العثمانية وابن رشيد ويوسف بن ابراهيم^(١٢) . وقد زود الأمير عبد العزيز هذا الرسول بتعليقات تنص على بقاءه مع التبريد يومين يتعرف خلالها على نواياه . فإن وجده ميالاً للتفاهم . عامله بالمثل . أما إذا وجده ميالاً للعداء . فعليه أن يسلك نفس السلوك ويعود للأمير ليتدبر أمره^(١٣) .

ولم ينس الأمير عبد العزيز أن يرسل مع موفده ذاك هدية للتبريد . لعلها نسل سخيمة نفسه . تكونت من اثني عشر فرساً . وطلب إبلاغ التبريد أمه في أن يتم قبول تلك الهدية . دليلاً على عدم وجود مشاعر عدائية بين الطرفين . وحتى لو كانت لدى التبريد مثل تلك المشاعر . فلا يجب أن يرد الأفراس . بل بإمكانه أن يضيفها للقوة التى سيهاجم بها^(١٤) . إنه موقف يدل على البراعة بلا ريب . إن الأمير لجأ إلى تدبير احترازى آخر حين أوفد أخاه سعد بن عبد الرحمن لمقابلة مشايخ قبيلة عتيبه . وكسب ولاءهم : ليضمن وقوفهم بجانبه . إذا اضطر للصدام مع التبريد . وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان . إذ يبدو أن التبريد كان سباقاً إلى

كسب ود تلك القبيلة ، فما كاد الأمير الشاب يصلهم حتى وجد بانتظاره بعض رجال الشريف الذين شدوا وثاقه على حين غرة ، وصحبوه إلى معسكر الشريف^(١١٠) .

ومجدد بنا هناك أن نسأل عن مصير سفارة «ناصر بن فرحان» وهل سمى أمر الأمير الشاب أثناء وجود ناصر لدى الشريف ، أو بعد رجوعه ؟ أرجح أن ذلك لم بعد رجوع ناصر ، وإن كانت الوثائق التي بين أيدينا لا تشير لذلك صراحة ، فقد طغت فيها أخبار أسر الأئمة الشاب على ما عداها ، حتى أنها لم نشر إلى حدث آخر مهم : وهو الوقت الذي يترك فيه الأمير عبد العزيز على رأس قواته لملاقاة الشريف ، فليس لدينا ما يشير صراحة إلى وقت ذلك التحرك ، وإن كان سياق الكلام في تلك الوثائق يشير إلى أن تحرك الأمير عبد العزيز على رأس قواته كان قبل أسر الأمير سعد : إذ يبدو أن الجميع تحركوا سوياً ، ثم انفصل الأمير سعد على رأس بعض القوات ليكون طلبعة للقوة الرئيسية التي قادها الأمير عبد العزيز بتؤدة ، لعل أخبار زحفه يصل إلى الشريف فيراجع عما اتواءه ويكفي الله الطرفين شر القتال .

كانت القوة التي تزحف بقيادة الأمير عبد العزيز كبيرة جداً بالقياس إلى قوة الشريف^(١١١) ، الذي كان يحيا على أبار الوجه في جنوب الوشم ، حوالي خط العرض ٢٥ شمالاً وخط الطول ٤٤.٣٠ شرقاً ، ورغم هذا المهند المتبادل ، فقد مال الطرفان فعلاً إلى التفاوض والتفاهم : فالأمير عبد العزيز حارب على سلامة أخيه الأسير^(١١٢) ، والشريف تخرج موقفه العسكري حيناً علم البدو الذين كانوا معه أن جيش الأمير أصبح على مسيرة مرحلتين منهم ، فرأوا كعادتهم أن أحسن القتاة هي سلامة الأبواب دون المجازفة بأعماهم ، لاسيما وأنه ليست هنالك قضية مشتركة بينهم وبين الشريف ، الذي فوجيء ذات صباح بأن أولئك البدو قد نسلخوا من معسكره تحت جنح ظلام الليل الفاتئ^(١١٣) ، ومن ناحية أخرى فإن الشريف كان يعلق املاً كبيراً على انضمام ابن رشيد لقواته ، ولم يدرك أن حائل والرياض كانا قد توصلنا لاتفاق ودي قبيل تحركه^(١١٤) ، وهنا يتأكد ما قلناه سابقاً من سوء تخطيط تلك الحملة ، وعدم كفاية معلومات الشريف عن الوضع السائد في المنطقة التي قاد قواته إليها .

لهذا كله بدأ الطرفان المفاوضات ، ورغم الوثائق التي بين أيدينا لا تشير إلى تفصيلاتها ، ولا عن الطريقة التي تمت بها ، إلا أنها تشير إلى أن الشريف أدرك نقطة الضعف في موقف خصمه : وهي حرصه على الاتفاق بأية وسيلة ضماناً لسلامة أخيه ، فاستغل ورقة الضغط هذه بذكاء وأصر على أنه لن يطلق سراح الأمير الأسير إلا إذا وقع الأمير عبد العزيز على عهد بأن يدفع له سنوياً ستة آلاف ريال ، باعتبارها قتل وإرذات القصص ، فاضطر الأمير لتوقيع ذلك العهد^(١١٥) ، الذي ما إن سلمه الشريف حتى أطلق سراح الأمير سعد وردّه بكل احترام ومعه هدية تتكون من ست هجن عمانية ممتازة^(١١٦) ، وقد رد الأمير عبد العزيز على هدية الشريف بهدية مماثلة شملت خمسين

كبيرتين ، وثلاثة مقاعد طويلة مكسوة بالخمél وأربعين معطفا وكساوى أخرى ، غلبها الشريف ثم غادر متوجها إلى مكة المكرمة^(١٢٢) .

ولم يستلم الأمير عبد العزيز لهذا الاتفاق القسرى ؛ بعد فى أن اطمأن على سلامة أخيه حتى وجه رسالة للشريف أعلمه فيها أن معهده المذكور لاغ ولا قيمة له ؛ لأنه وقع وهو مكروه . وفكر الأمير عبد العزيز أيضا فى تقديم شكوى ضد الشريف إلى والى بغداد والبصرة العنانيين . ولكن الشيخ مبارك الصباح صرفه عن ذلك التفكير ؛ لأن ذنبك الواليين - فى رأيه - لا يملكان سوى رفع تقرير بالأمر إلى استانبول . وقد تفتح هذه الشكوى الباب لتدخلات عنائية جديدة فى أمور نجد . وهو باب أوصد منذ زمن . ولا يعلم إلا الله كيف سبغلى إذا ما فتح ثانية^(١٢٣) .

وأن لنا أن نساءل هنا عن موقف الحكومة العنائية خلال تلك الحادثة وهو موقف لم يكن واضحا حتى للأمير عبد العزيز نفسه^(١٢٤) . ويمكن القول إنه من غير المعقول أن نسم حادثة من هذا النوع دون علم الحكومة . كما أنه من غير المتوقع أن يقدم أمير مكة المكرمة التابع للحكومة والمناز على مساعدتها على عمل من هذا القبيل دون استئذان حكومته . أو أطلاعها على أمر . وعلى هذا أرجح أن الأمر لم يعلم الحكومة العنائية . إن لم يكن بمباركتها . ولعل ذلك الحاطر قد طاف بذهن الأمير عبد العزيز . فضمن رسالته إلى الشريف التى نقضى فيها التعهد الذى وقع قوله : بأنه لیس لديه نزاع مع الحكومة العنائية . وأن أهل نجد الذين اختاروه حاكما لهم يعرفون بسيادة السلطان عليهم^(١٢٥) .

وبجدد بنا ان تلقى نظرة على الدوافع التى دفعت الشريف للإقدام على حملته تلك . فإذا استتبناك الفرض بأنها تمت بتوجيه من الحكومة العنائية . فإن أول هذه الدوافع هو رغبته فى تحقيق نصر سهل يظهره امام الحكومة العنائية بأنه الزعيم المنفذ فى كل شبه الجزيرة والذي يستطيع ان يحقق بحملة صغيرة ما عجزت عنه جيوشها وجيوش حليفها ابن رشيد قبل سنوات . وقد استمر الورقة التى حصل عليها من الأمير عبد العزيز لكى بصورها انه حقق هذه الغاية بكلفه . ويبدو انه نجح فى تعميم هذا الانطباع فى الأوساط الرسمية فى استانبول . حتى أن مراسل صحيفة «الناس» اللندنية هناك تأثر بذلك ؛ فكتب إلى جريدته الخبر التالى الذى نشرته فى عددها الصادر يوم ٦ أكتوبر ١٩١٠ انه «طيفا لأبناء من مكة فقد نتج عن القبض على سعد بن سعود أن كل القبائل العربية فى اقليم نجد قد اعلنت خضوعها للدولة . بينما أعلن عبد العزيز بن سعود عن استعداد لاطاعة اوامر الحكومة . ولا يستبعد فى هذا المجال ان تكون بعض العناصر المعارضة للأمير عبد العزيز . قد اغرت الشريف بكلتحرى فى ذلك الطريق الوعر . الذى لم يجن من ورائه شيئا كبيرا . بل العكس هو الذى حدث ؛ فإنه عودته خالى الوفاض قد زادت من مكنته الأكبر عبد العزيز فبدأ عين اهالى المنطقة على حد تعبير الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت^(١٢٦) .

ومن الطرف الاشارة هنا إلى أنه كان لتلك الحادثة صدی واسع في المنطقة تناقله الركبان الى المواضر المهمة . مع ما يرافق ذلك التناقل عادة من تحريفات انعكست في تقارير الممثلين البريطانيين في تلك المواضر : فقد أورد الوكيل السياسي البريطاني في البحرين مثلا ان الأخبار التي وردت لذلك المكان من مكة المكرمة تشير إلى أن الشريف والأمير عبد العزيز وصلا الى اتفاق سلام بنفس على ما يلي :

١ - نكون لأهالي القصيم حرية اختيار رئيس لهم من بين الشريف والأمير وابن رشيد . فإذا ما وقع اتفاقهم على احد الرجلين الأخيرين . فإن من وقع عليه الاختيار يلتزم بدفع مبلغ ٧٥٠٠ روية هندية سنويا للشريف .

٢ - إذا طلبت الحكومة العثمانية تجنيد أهالي نجد في الجيش فإن الأمير عبدالعزيز سوف بعدم تأييده الكامل وسانده لذلك الطلب .

٣ - إذا ضايق الأمير عبد العزيز قبيلة عنية أولم يسمح لها بحرية التجارة في نجد . فإن الشريف سيعاقب المعندين . أما اذا سببت قبيلة عنية أية اضطرابات فإن الشريف سيقوم بمعاقبتها^(١٨) .

أما الأنباء التي وصلت لبغداد عن تلك الحادثة . فتصورها بأن الشريف قام بزيارة للقصيم . حيث اجتمع هناك بكل من ابن سعود وابن رشيد وحثهما على الاتفاق . انصرف بيدها الأميران المذكوران . بينما مكث الشريف بعدها في المنطقة بعض الوقت نجح خلالها في الحصول على ولاء أهل القصيم^(١٩) . ولعل هذا التضارب في المعلومات الواردة في الوثائق البريطانية والمتعلقة بحادثة واحدة . ينهنا إلى أمرهم : هو ضرورة الحذر عن! الأخذ من أية وثيقة وعدم اعتبار معلوماتها دقيقة تمام الدقة لمجرد كونها وثيقة رسمية . وإنما يتعين تدقيقها ومقارنتها بغيرها من المصادر للوصول إلى فركتن تراجع صحة ما فيها قبل الاستفادة منها . وبخاصة عند ما نكون معلومات تلك الوثيقة غير مستفاد من مشاهدة مباشرة قام بها كاتب الوثيقة . أو كان ذا صلة مباشرة بموضوعها .



• المراجع •

- R/15/5/25, No. 30, Consui Monahan to sir G - Iother, dated 11/6/1910 (١)
- R/15/5/25, Extract from Kuwait news for week ending 28/9/1910 (٢)
- (٣) لا أدري ان كان هناك موضوع شمال الحرمه اسمه «المعلوم» وإلا فالجملة مضطربة غامضة
- (٤) المعروف ان جدة ميناء لواردات مكة المكرمة . ولعل سبب عدم حمل الشريف للمواد المطلوبة معه هو رغبته في التخفيف من الأحمال . علما بان الكويت كانت حينئذ المنفذ الرئيسي لواردات النعشم وكلعارض
- R/15/5/25, No . 548 - 9 of 1910 P. A. Kuwait to P. R., Brghdad (٧)
- R/15/5/25, Extract from kuwait nrws for week ending 28/9/1910 (٨)
- (٩) لو افترضنا ان الحرمه تضم عشرين رجلا لكان اجمالي القوة الف رجل . وهي قوة ليست كبيرة
- R/15/5/251, Extract from kuwait news for week ending in 21/9/1910 (١٠)
- R/15/5/25, No. 23, Consui, Jeddah to sir G. Lowther, dated 15/5/1909 (١١)
- (١٢) هو التاجر الكويتي المشهور يوسف بن عبد الله الابراهيم الذي تاصب الشيخ مبارك العداء وتحالف مع ابن رشيد ضده - توفي سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م
- R/15/5/25, Extract from kawait news for week ending in 21/9/1910 (١٣)
- R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 12/9/1910 (١٤)
- R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 28/9/1910 (١٥)
- R/15/25, No. c - 70, p. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/191 (١٦)
- R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 28/9/1910 (١٧)
- R/15/5/25, No. C - 70, P. A., kuwait to P.R., Bushire, dated 6/11/1910 (١٨)
- R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 12/10/1910 (١٩)
- R/15/5/25,nExtract of kuwait news for week ending in 19/10/1910 (٢٠)

R/15/5/25, No. C - 70, P. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/1910	(٢٧)
R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 12/10/1910	(٢٢)
R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending in 19/10/1910	(٢٣)
R/15/5/25, No. C - 70, P. A., Bushire, dated 6/11/1910	(٢٤)
R/15/5/25, No. C - 17, P. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/1910	(٢٥)
R/15/5/25, No - c - 17, P. A., Kuwait to P. R., Bushire. dated 6/4/1911	(٢٥)
R/15/5/25, No - c - 70, P. A., kuwait to P. R., Bushire, dated 6/11/1910	(٢٦)
R/15/5/25, Extract of kuwait news for week ending 19/10/1910	(٢٧)
R/15/5/25, Extract ofnBahrain news for ending 25/11/1910	(٢٨)
R/15/5/25, No - 1100, P. R., Baghdad to P. A., kuwiat, dated 15/12/1910	(٢٩)

